

التناقض

في كتاب النثر الفني

للأستاذ محمد أحمد الخمرأوى

تقدم قلمنا أسلفنا من كلمات مثل من تناقض صاحب النثر الفني ، لكن المقام في تلك الكلمات لم يكن يسمح بالتنبيه إلى ذلك التناقض إلا عرماً . فلعل من الخير الآن أن ننبه إلى بعض ما فانا التنبيه إليه هناك

وأول ما نحب التنبيه إليه من هذا تناقضه في موقفه من المأثور من النثر الجاهلي . فبينما هو ينفية ويقال في موقف ، إذا هو يثبتته ويؤكد في موقف ، فهو ينفية نفياً بآ في قوله :

« وما تعلق الرواة من النصوص لا يكفي لتعيين أساليب النثر في العصر الجاهلي ... وهو على قلته مما وضع في العصر الأموي وصدر العصر العباسي لأغراض دينية وسياسية » ص ٣٥ : أول : ثم يؤكد ذلك في صفحة ٣٧ إذ يقول :

« وإذا كان الشعر الجاهلي مهدداً بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحفاظ والتأليف ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين » لكنك تقرأه في صفحة ٥٢ ما ينقض هذا من أساسه إذ يحدثك :

« فانا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلي واسع النطاق ... »

يقولون : وأين آثار ذلك الأدب الجاهلي ؟
وأجيب : بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى ليصعب أن نتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية

وهنا يتسم المنكرون قائلين ومن يدري أن كان هناك أدب ضاع ؟

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب ، لأن الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند التأخرين ، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثاني والثالث فقد عرفوه وتدارسوه !

ولكن أمراً واحداً يستوقف النظر ، هو أن الذين ذكروا مقتل المتنبي ذكروا أن محمداً قتل معه ، فنحن نعرف من ذلك أن محمداً كان يصحب أباه في عودته من فارس إلى العراق ، ولكننا لا نعرف السن التي كان فيها محمداً ، كما إننا لا نعرف أين كانت أم محمداً في ذلك الحين . على أننا نستطيع التأكد من أنها لم تكن تصحبه في تلك الرحلة القانية ، لأنها لو كانت تصحبه وقتل زوجها ولولدها لمعنا عنها خبراً ، ولروى أبو نصر الجبلي للخالدين عنها شيئاً ؛ فبالتسليم هل كانت لا تزال على قيد الحياة تنتظر أوبة زوجها ولولدها وتستمد لاستقبالها بعد النياب الطويل ؟ هل كانت أم محمداً في الكوفة تترقب عودة أبي محمداً ومحمد فتبهما لواعج الوجد والشوق وتفنى إليهما بما في الصدر من هوى وحنين ؟ أم كانت في مكان آخر تستطلع أخبار

النائبين العزيزين متوقفة ما يحملانه لها من مجد ورفاه ومال ؟ أجل هل كانت حية تنتظرهما أم كانت ميتة من عهد بعيد أو قريب فلم يفجئها موتها الدامي ؟

كل ذلك سر في ضمير التاريخ لم يكشف عنه لأحد . ولكننا نسأل : هل يمكن أن تموت في حياة زوجها ، ثم لا يرثيها بكلمة ولا يبكيها بقصيدة بعد أن رأينا شدة تفججه على جدته وطول حرقته لموتها ، ونحن نسينا في مقالنا هذا أن نعرف مدى تأثيرها في حياة المتنبي وفي شعره ، وبعد كل الذي مر ندرك أننا لا يمكن أن نجد لها أي أثر في حياته ولا في شعره

أما ما كان من تأثير الحبيبة في المتنبي فذلك ما سنجيب عليه في مقال تال .

(البناتية — بلاد الشام)

جس أبو جيب

نعم يعود فيؤكد هذا في صفحة ٥٣ إذ يقول : « أنا أقول بأن الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه ويتجرون به في الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك

فصاحب النثر الفني يثبت هنا ما كان قد نفي وأنكر هناك من وجود نثر جاهلي صحيح عرفه القدماء الإسلاميون وتدارسوه ، واستنتجوا منه ما استنتجوا ، وحكموا عليه وله بما حكموا . وهو بهذا يهدم كل ما بنى ورتب على فقد النثر الجاهلي من نحو إهماله آراء القدماء وحكمهم في نثر الجاهلية ، واضطراره إلى الرجوع إلى القرآن لاستنباط صفات ذلك النثر ، بقطع النظر عن رأى صاحب النثر الفني في القرآن . أما كيف ، وقد كان ذلك النثر موجوداً مدروساً في القرون الثلاثة الأولى ، أمكن أن يندثر ويضيع في القرن الرابع والقرون بعده ، فذلك ما لا فائدة في التساؤل عنه أو النظر فيه عند صاحب الكتاب

وموقف صاحب الكتاب من أمية العرب في الجاهلية يشبه موقفه من النثر الجاهلي ، فهو يقضى فيها بما يلائم غرضه في كل مقام . إذا أراد أن يهدم ما بناء الأقدمون على أمية العرب شكك فيها ثم نفاها ، حتى إذا أراد أن يحتج لبعض مزاعمه التي ينقضها نفيه الأمية عن عرب الجاهلية أثبتها وأشاعها

فهو يشكك فيها حين يريد أن يثبت لهم أدباً مكتوباً في الجاهلية إذ يقول : « وهذا الذي أقوله يحملنا على الشك في التقاليد التي جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة ، وأنهم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم »

وهو ينفيها عنهم حين يثبت لهم في الجاهلية علوماً ونهضة لا تقوم إلا على الكتابة والكتساب كما ترى في قوله : « وظهور كتاب القرآن في أي لغة يدل على أنها تمتد تطوراً طفولة منذ أزمان ، واللغة حين تصل إلى عهد القوة والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقعيد ما يمرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغموض » ص ٤٨ وفي قوله : « وإنما أرجح أن

يكون العرب في جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية . ألسنا نرى القرآن يجري على نمط واحد في أوضاعه النحوية لا يختلف في ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة » ص ٥٥

وفي قوله : « ونتيجة ما سلف أن العرب في جاهليتهم اهتموا بالنثر الفني اهتماماً ظهر أثره وعرفت خواصه في خطب الخطباء ورسائل الكتاب » ص ٥٦

فأقرأ له وأعجب إذ يقول بعد ذلك مباشرة : « ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقعيد والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماماً جدياً بتدوين البديع ، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين في هذا الفن الجميل » هذا يقوله في مقام يريد فيه أن يجعل البديع كالنحو علماً معروفاً في الجاهلية كما هو صريح كلامه في صفحة ٥٦ ، فلما لم يجد دليلاً أو شبه دليل على ذلك علله بإهمال التقعيد والتدوين لشيوع الأمية في عرب الجاهلية ، ناسياً ما كان ادعاه لهم من قبل من وجود علماء كاتبين يهتمون بتقعيد العلوم

ومثل آخر من اضطرابه وتناقضه ما كتب في القرآن وأثره في أهل العصر الأول ؛ فهو في صفحة ٥٨ يروي في الهامش رأى المسيو مرسيه من أن العرب كانوا يتجنبون محاكاة القرآن وأن القرآن لذلك لم يؤثر في نثرهم الفني تأثيراً يذكر . وقد واقفه بحق على تجنبهم المحاكاة وخالفه بحق كذلك في إنكاره تأثير القرآن إذ يقول : فإن ذلك — أي تجنبهم المحاكاة — لا ينافي تأثيره به وتأثيره فيهم ، فإن هناك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصبغ الآثار الأدبية بصبغة ما يقرأ المرء أو يسمع وإن تكلف الحرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد » فهذا صريح في أنه يرى أن تأثير القرآن كان غير مباشر ، أي كان رغم تكلفهم الحرب عن المحاكاة والتقليد . لكنه يرجع بعد ذلك في صفحة ٦٠ فيقول توصلنا إلى تخطيط بعض مخالفته « والقرآن أساس المنهج الكتابي لذلك العصر — عصر المصدر الأول — بلا شك » فينقض بهذا ما وافق وما خالف به .